(١)

فهم مقاصد السنة النبوية ضرورة عصرية لمواجهة الجمود الفكري

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم : {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ ، **وبعد** :

فإنه لا ينكر حجية السنة النبوية المطهرة وفضلها ومكانتها إلا جاحد أو معاند ، فقد أجمعت الأمة على أنها المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله (عز وجل) ، ومن ثمة كانت العناية الفائقة بها حفظًا ورواية ، وتدوينًا ، وتخريجًا ، وتنقية ، وفهمًا ، واستنباطًا .

على أن جميع النصوص التي وردت في القرآن الكريم تتحدث عن طاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والتحذير من مخالفة أمره ، وتؤكد على حجية السنة وتنطق بها ، يقول الحق سبحانه وتعالى: { مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا }، ويقول سبحانه: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}، ويقول سبحانه: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.

بل إن الله (عز وجل) جعل اتباع سنته (صلى الله عليه وسلم) من لوازم الإيمان وأماراته ، وعلامة من علامات صدق العبد في محبته لله (سبحانه) ، قال تعالى :{ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

ملاحظة : هذه الخطبة مأخوذة من كتاب الفهم المقاصدي للسنة النبوية لمعالي وزير الأوقاف " تحت الطبع"

وقد أمر الله (عز وجل) بتعظيم أمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) وحذر من مخالفته ، فقال تعالى :{ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }، وقال تعالى :{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }.

كما بيّن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن طاعته وامتثال أمره من طاعة الله (عز وجل) ، وأن معصيته من معصية الله ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (...فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) ، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ) .

على أنه ينبغي أن نعلم أن السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع ، شارحة ومفصلة ومبينة ومتممة ، قال تعالى : {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}، وقال تعالى : {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}، ويقول سبحانه : {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، قال الحسن البصري ، والشافعي وغيرهما : الحكمة هي السنة.

إن الراسخين في العلم من أهل الفضل والحق يدركون مكانة السنة النبوية المشرفة ، وأن الفهم الصحيح للدين لا يتم إلا بفهم مقاصد السنة النبوية المطهرة ،

يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَلا إِنِّي أُوتِيتُ القُرآنَ ومِثلَهُ مَعَهُ) ، وقَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَلاَ هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلاَلاً اسْتَحْلَلْنَاهُ ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ) .

غير أن هناك من يقفون عند ظواهر النصوص لا يتجاوزون الظاهر الحرفي منها إلى فهم مقاصد السنة النبوية المطهرة ومراميها ، فيقعون في العنت والمشقة على أنفسهم ، وعلى من يحاولون حملهم على هذا الفهم المتحجر ، دون أن يقفوا على فقه مقاصد السنة المشرفة ، بما تحمله من وجوه يسر وعظمة ديننا الحنيف ، والذي لو أحسنا فهمه وعرضه على الناس لغيّرنا تلك الصورة السلبية التي سببتها أو سوقتها الأفهام والتفسيرات الخاطئة للجماعات الإرهابية والمتطرفة والمتشددة ، ورؤى أصحاب الأفهام السقيمة الجامدة المتحجرة على حد سواء.

ورحم الله الحسن البصري حين قال : إنّ قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتّى خرجوا بأسيافهم على أمّة محمّد (صلّى الله عليه وسلّم)، ولو طلبوا العلم لم يدلّهم على ما فعلوا ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

وتعالوا بنا لنقف مع هذه الحادثة في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) واختلاف الصحابة في فهم مقصد النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وكيف كان ردُّ فعله (صلى الله

عليه وسلم) ، ففي غزوة بني قريظة كان يهود بني قريظة قد نقضوا عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غزوة الأحزاب ، فلما ردَّ الله (عز وجل) الأحزاب بغيظهم لم ينالوا خيرًا ، قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه : (لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ) فانطلقوا مسرعين نحوها فأدركهم الوقت ، وأوشك على الانقضاء ولم يصلوا إلى بغيتهم ، فقال بعضهم : لا نصلي حتى نصل بني قريظة ، وقال آخرون : لم يرد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منا ذلك ، إنما أراد الإسراع بالمسير ، فصلوا قبل أن يصلوا إلى بني قريظة ، فلم ينكر النبي (صلى الله عليه وسلم) على هؤلاء ولا على أولئك .

ونأخذ من ذلك أن في الأمر سعة ، وفيه متسع للرأي والرأي الآخر ، طالما أن النص يحتمل ذلك ، وطالما أن المجتهد أهل للاجتهاد والنظر ، وله وجهة علمية يبنى ويحمل عليها ، أما أن يتحجر بعض من لا علم لهم عند ظواهر النصوص دون فهم لمقاصد الأمور ، فهذا هو عين التعصب والجمود .

على أننا نؤكد أن الجهل بفقه الخلاف يؤدي إلى التعصب للرأي والانتصار له بل وربما المعاداة من أجله ، ولن نستطيع القضاء على كل هذه الأفكار السلبية إلا بالفهم الصحيح لمقاصد الشارع الحكيم من كتاب ربنا وسنة نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، وتربية النشء على تعلم أدب الخلاف ، واحترام الرأي الآخر ، وكان الإمام الشافعي (رحمه الله) يقول : (رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلامًا على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

إذا أردنا أن نقف مع بعض الأمثلة اليسيرة للفهم المقاصدي ، فلنأخذ مثالا لذلك قوله (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي ، وَبِكَ أَرْفَعُهُ ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا ، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ) ، والمراد بـ (دَاخِلَة الْإِزَار) : طرفه ، فيُسْتَحَبّ أَنْ يَنْفُض الإنسان فراشه قبل أَنْ يَدْخُل فِيهِ بطرف ثوبه لِئَلَّا يَحْصُل فِي يَده مَكْرُوه ، فلو وقفنا عند ظاهر النص فماذا يصنع من يلبس ثوبًا يصعب الأخذ بطرفه وإماطة الأذى عن مكان النوم به كأن يرتدي لباسًا عصريًّا لا يمكنه من ذلك .

ولو أخذنا بالمقصد الأسمى وهو تنظيف مكان النوم والتأكد من خلوه مما يمكن أن يسبب للإنسان أي أذى من حشرة أو نحوها ، لتأكدنا أن الإنسان يمكن أن يفعل ذلك بأي آلة تحقق المقصد وتفي بالغرض ، فالعبرة ليست بإمساك طرف الثوب ، وإنما بما يتحقق به نظافة المكان والتأكد من خلوه مما يمكن أن يسبب الأذى ، بل إن ذلك قد يتحقق بمنفضة أو نحوها أكثر مما يتحقق بطرف الثوب ، لكن النبي (صلى الله عليه وسلم) خاطب قومه بما هو من عاداتهم وبما هو متيسر في أيامهم حتى لا يشق عليهم في ضوء حياتهم البسيطة .

فمن شابهت حياته حياتهم فلا حرج عليه إن أخذ بظاهر النص ، غير أن محاولة حمل الناس جميعًا مع كل ألوان تطور الحياة العصرية على الأخذ

بظاهرالنص ظلم كبير في فهم مقصده .

ومن أمثلة الفهم المقاصدي كذلك: ما يتصل باستخدام السواك الذي تحدث عنه الفقهاء ، فقالوا في حكمته : مطهرة للفم ، ومرضاة للرب ، وإصابة للسنة ، حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : " لَوْلَا أَنْ أَشُقّ عَلَى أُمّتِي أَوْ عَلَى النّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسّوَاكِ مَعَ كُلّ صَلَاةٍ " ، وفي رواية : " لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء" ، والقصد من السواك : طهارة الفم والحفاظ على رائحته الطيبة ، وإزالة أي آثار لأي رائحة كريهة مع حماية الأسنان وتقوية اللثة ، وهذا المقصد كما يتحقق بعود السواك المأخوذ من شجر الأراك يتحقق بكل ما يحقق هذه الغاية ، فلا حرج مِن فعل ذلك بعود الأراك أو غيره كالمعجون وفرشاة الأسنان .

أما أن نتمسك بظاهر النص ونحصر الأمر حصرًا ونقصره قصرًا على عود السواك ، ونجعل من هذا العود علامة للتقى والصلاح بوضع عود أو عودين أو ثلاثة منه في الجيب الأصغر الأعلى للثوب مع تعرضه للغبار والأتربة والتأثيرات الجوية ونظن أننا بذلك فقط دون سواه إنما نصيب عين السنة ، ومن يقوم بغير ذلك غير مستنٍّ بها ، فهذا عين الجمود والتحجر لمن يجمد عند ظاهر النص دون فهم أبعاده ومقاصده ، لذا فنحن في حاجة إلى قراءة مقاصدية عصرية للسنة النبوية ، تتواكب مع روح العصر ومستجداته ، وتقرب السنة النبوية العظيمة إلى الناس بدلاً من الأفهام السقيمة التي تنفر الناس من السنة ولا تقربهم منها .

إن الشريعة الإسلامية شريعة سمحاء لا تعرف الجمود ولا التشدد ، إنما هي شريعة التيسير والمرونة والسعة وكل ما فيه صالح البلاد والعباد .

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .